

سليمان وعين البحر

حمادة حامد محمود نور الدين

في رشيد، حيث يلتقي النيل بالبحر، كان في ولد اسمه سليمان، عمره عشر سنين، وابن أشهر بحّار في البلد، ومع ذلك كان يخاف من الميّة.

مش من البحر بس. من الميّة كلها. من الترعة، ومن المطر التقيل، وحتى من طاسة الغسيل اللي أمه بتسيبها في البلكونة. مرة واحدة، وهو في سنه أربع سنين، موجة واحدة جت من وراه وقلبته على وشه على الرملة، ومن يومها والميّة في عينيه حاجة بتكذب: بتضحك من بعيد، وبتقلب من قريب.

وعشان كده أولاد البلد كانوا بيعيّروه: «ابن البحّار اللي بيخاف من الميّة!» وصاحبه الوحيد اللي ميعيّروش كان مرزوق، ابن عمّه، اللي كان بيعوم زي السمكة وبيغطس تحت المراكب يطلع من الناحية التانية وهو بيضحك.

بس سليمان كان عنده حاجة محدش فيهم عندها: عينيه.

كل يوم بعد المدرسة، كان يطلع على السور الحجري القديم جنب الفنار، ويقعد ساعة كاملة يبص للبحر. مش بيبص زي الناس. كان

بيدراسه. رسم في كرّاسته خطوط الموج، ولون الميّة كل ساعة، وطيور النورس لما بتطير عالي ولما بتنزل، ورائحة الهوا لما بتتغير. أبوه لما شاف الكراسة ضحك وقال: «انت بتكتب أخبار البحر يا سليمان؟» فرد سليمان وهو مش عارف إن الكلمة دي هتبقى اسم شغلته: «البحر بيقول أخباره كل يوم يا بابا، بس محدش سامعه غيري.»



وكان فعلًا بيعرف من كراسته إن البحر لما يبقى لونه رمادي غامق عند البوغاز، الهوا هيجري بعد ساعتين. ولما النورس يفضل طاير

داير في مكانه، يبقى في عاصفة بعيدة لسه جاية. ولما الموج يتكدّس عند مصبّ النيل صفّ ورا صفّ، يبقى في رملة جديدة اتعملت تحت الميّة، والمراكب الكبيرة بتعدّي من شمالها مش من يمينها.

وفي يوم الخميس الكبير، يوم سباق مراكب الأولاد السنوي، صحى سليمان بدري، وفتح الشباك، وشمّ الهوا.

الهوا كان ريحته غريبة. مالحة زيادة. وباردة زيادة عن آخر أكتوبر.

نزل يجري على السور، وقعد ساعته، لكن النهارده ماكتبش في الكراسة. شاف اللون الرمادي الغامق عند البوغاز. شاف النورس طاير داير في مكانه. وشاف الموج متراكم صف ورا صف. العلامات التلاتة مع بعض. الكراسة كانت بتقول: «العلامات التلاتة مع بعض = اليوم ده مش يوم بحر.»

جري سليمان على المرسى، لقى عمه رزق، مسؤول السباق، واقف وسط أعلام وزينة، وأهل البلد كلها جاية. قالله وهو لسه بيلهث: «عمّو رزق، السباق لازم يتأجل. البحر هيتقلب.»

عمه بص لسما صافية وشمس حلوة، وضحك، والناس اللي واقفين ضحكوا معاه: «يا سليمان يا ابني، السما زي الفل. روح اقعد جنب أمك وشجّع ابن عمك.» مرزوق ناداه من مركبه الصغير وقال وهو مبسوط: «هجيبلك الكأس يا سليمان!» وانطلقت المراكب الخمس وسط الزغاريط.



أول نص ساعة كان البحر هادي فعلًا. الناس بتاكل وتشرب وتشجّع. وسليمان الوحيد اللي واقف على رجليه، عينيه على البوغاز.

وبعدين اللون بدأ يتغير.

محدش شافه غيره. حدود رمادية داخلة من البحر المفتوح، والموج بدأ يقف واقف، زي أسنان بتتبرّ. سليمان جري على الفنار القديم. الفنار مقفول من سنين، بس هو كان عارف الشباك اللي ساكّه بيتفتح، لأنه جرّبه وهو بيلعب. طلع يجري على السلالم الحلزونية، طابق، اتنين، تلاتة، وقلبه بيدق في ودانه، لحد ما وصل لغرفة المصباح.

المصباح القديم كان لسه شغال من زمان لما كان عمو رزق نفسه فنّار، قبل ما يبطّلوا إشعاله لما البلد جالها فنار آلي. سليمان فتّش في الدولاب اللي شاف عمه مرة بيفتحه، لقى الكبريت والزيت، وإيديه بترتعش وهو بيملى الفتيل، أشعل مصباح المنارة في وش النهار، ولفّ الشريط اللي بيحرّك الإشارة: ضوء طويل، ضوءين قصار. الإشارة اللي كان عمه بيعلّمها لأبوه وهو صغير: «ارجعوا. خطر. ارجعوا دلوقتي.»



على المرسى، واحد من البحّارة شاف الضوء الأول. قال: «الفنار؟ الفنار ميت من عشر سنين!» وبعدين شافوه كلهم: الضوء الطويل، والضوءين القصار، وأبو سليمان، اللي كان فنّار زمان، أول واحد فهم وصرخ: «المراكب! رجّعوا المراكب!»

المراكب الصغيرة رجعت واحد ورا التاني، مستغربة، وسط العاصفة اللي وصلت فجأة كأنها كانت مستنية تحت الميّة. مركب مرزوق كان أبعد واحدة، برّه عند البوغاز، والموج رفعها وقلبها.

الكل صرخ. مرزوق كان بيعوم كويس، بس التيار عند المصبّ أقوى من أحسن عوّام. سليمان من فوق الفنار شاف اللي محدش على المرسى يقدر يشوفه: مرزوق مش في خطر من الغرق، هو في خطر من الرملة الجديدة، اللي الموج هيرميه عليها ويقلبه عليها تاني وتالت. صرخ بأعلى صوته من شباك المصباح، وإيديه بتشاور: «شمّال! يا بابا شمّال!»

أبوه كان أول مركب خرجت للإنقاذ، وسمع صوت ابنه من الفنار، وسمع الكلمة اللي قالها، ورغم إن الرملة مش باينة، وثق في عين ابنه، وعدّى من شمالها زي ما الكراسة بتقول من سنة، ووصل لمرزوق، وشدّه من ياقته فوق المركب، وهو بيضحك ويبكي في نفس الوقت.

ولما رجعوا، العاصفة كانت ضاربة البوغاز بموج أطول من الفنار نفسه. لو المراكب كانت فضلت خمس دقايق كمان، محدش كان هيرجع.

محدش ضحك من سليمان بعد اليوم ده.

عمّو رزق وقف قدام الناس كلها على المرسى، وشال طاقيته، وقال: «أنا بقالي أربعين سنة على البحر، والنهارده اتعلمت إن البحر مبيعرفش كام سنة عندك. بيعرف بس انت سامعه ولا لأ.» وبعدين بص لسليمان وقالله: «من النهارده، يا سليمان، إنت عين البلد على البحر. الجرس بتاع العاصفة في إيدك.»

ومن يومها، أهل رشيد صاروا قبل ما ينزلوا مراكبهم يبصوا فوق، ناحية السور الحجري، يلاقوا ولد قاعد بكراسته. لو رفع الكراسة فوق راسه، ينزلوا. ولو نزّلها تحت إبطه وكمل كتابة، يرجعوا لبيوتهم، ويستنوا بكرة.

أما سليمان نفسه؟ لسه بيخاف من الميّة. الفرق إنه بقى يعرف إن الخوف اللي فهّمه البحر، أحسن من الجرأة اللي مسمعتش منه ولا كلمة.

وفي أول يوم شتاء، وقف سليمان عند حرف الميّة، حافي، وغطّس رجل واحدة في الموجة الصغيرة، وقال للبحر بهدوء: «أنا عارف إنك بتكذب. بس أنا كمان عارف أسرارك.»

وضحكت الموجة، وسليمان ضحك معاها، لأول مرة من سبع سنين.

— النهاية —

حمادة حامد محمود نور الدين

https://dakkan-alhikayat.netlify.app